

## خالد بن يزيد بن معاوية

عبد الرزاق صحمير

الأستاذ بكلية دار العلوم

لا نجد كتابا تحدث عن نشأة العلوم في الإسلام إلا نسب إلى خالد بن يزيد الفضل الأول في الاشتغال بالعلوم - وخاصة الكيمياء - وتوجيه أنظار المسلمين وأذهانهم إليها قبل أن يحىء عصر الترجمة والنهضة العلمية في أيام العباسيين :

يقول عنه الجاحظ في البيان والتبيين : إنه كان خطيبا شاعرا، وفصيحاً جامعاً، وجيد الرأي كثير الأدب ، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء .،

ويقول ابن النديم في الفهرست إنه « عني بإخراج كتب القدماء في الصنعة، وكان خطيباً شاعراً ، فصيحاً ، حازماً . وهو أول من ترجم له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء . . . وقد رأيت من كتبه : كتاب الحرارة . كتاب الصحيفة الكبير - كتاب الصحيفة الصغير - كتاب وصيته إلى ابنه في الصنعة ، .

أما ابن خلكان فيقول عنه : « إنه كان من أعلم قریش بفنون العلم ، وله كلام في صنعة الكيمياء والطب ، وكان بصيراً بهذين العلمين متقناً لهما ، وله رسائل دالة على مخرفته وبراعته ، وأخذ الصنعة عن رجل من الرهبان

يقال له « مريانس » ، وله فيها ثلاث رسائل ، تضمنت إحداهن ماجرى له مع مريانس ، وصورة تعلمه منه ، والرموز التي أشار إليها .  
ويقول عنه ياقوت في معجم الأدباء . « وما نسبوا إليه من التصانيف في السكيميا : السر البديع في فك الرمز المنيع .  
وظاهر من هذا أن المؤرخين يجمعون على أنه أول من اشتغل بالصنعة - السكيميا - . ونخلص من أقوالهم بما يأتي :

(١) أن خالدا ترجم كتباً في السكيميا عند الجاحظ ، وترجمت له عند ابن النديم ، ولا خلاف بين القولين . فالمراد بالترجمة أن بعض المشتغلين بهذه الصنعة من الأجانب المقيمين بالشام قد ساعده على نقل بعض المعارف اليونانية في السكيميا وكان لخالد فضل توجيههم إلى هذه الترجمة وتشجيعهم عليها .  
(٢) وأنه اتصل بمريانس يتعلم منه هذه الصنعة فحاول أن يكون عالماً لاشمجة فقط .

(٣) أما السكتب التي تنسب إليه فقد قرر ابن النديم أنه رأى بعضها ، ونحن نعتمد عليه كثيراً . ولانستطيع أن نرفض ما يقوله هنا ولكن لنا أن نفهم في هذه الكتب أنها كانت مجموعة صغيرة من الأوراق موضوعاتها مختلفة ، فكانت منها هذه السكتب . وهذا يناسب حالة العلوم في الدولة الإسلامية في ذلك العهد .

أما أهمية هذا العمل من الناحية اللغوية أو الأدبية فهي أن البدء بالترجمة والتأليف في هذه الناحية العلمية فتح أفقاً جديداً أمام الأساليب العربية وساعد على اتجاه الكتابة إلى الأسلوب العلمي الذي يعنى بالحقائق ، ويتجنب الزخرف ، ويضع المصطلحات ، ويخص بعض العلوم ببعض الأساليب والكلمات ، وساعد على نقل بعض طرق التفكير والبحث إلى ميدان الثقافة العربية ، فشارك العلوم اللسانية والدينية في وضع أسس اللغة والأساليب العلمية عند العرب .

لكن ما الذى حمل خالدا على الاشتغال بهذه العلوم والعناية بها وترجمتها؟ لا شك أن استعداداه ومحبته لطريقتها فى البحث أو ميله إلى ما تعالجه من موضوعات كان السبب الأول - وأقول هذا على الرغم مما يقال من أنه كان يبنى الوصول إلى الذهب عن طريق هذه الصنعة ليشتري به قلوب الناس ويستعين به على استرداد الخلافة من بنى مروان - وأضيف إلى هذا أن اتصاله بعلماء السريان سهل له الاستعانة بهم فى كثير مما يحتاج إليه للاشتغال بهذا العلم. ولعلمهم أمدوه بالآلات والمعلومات والمساعدين، وقد يكون حرمانه الخلافة بعد أن كانت قريبة منه سببا صرفه إلى الاشتغال بهذه الصنعة ليشغل نفسه عن اللوم من جهة، وعن المنافسة فى الخلافة من جهة أخرى، بعد أن رأى ما أصاب غيره من الخارجين عليها كعمرو بن سعيد.

...

وقد اشتغل بالعلوم الأجنبية أو استفاد منها قوم من العرب اتصلوا بالثقافة الأجنبية قبل خالد، وفى ترجمة الحارث بن كادة الثقفى طبيب العرب المشهور أنه عرف طب الفرس ورحل إلى بلادهم، وتعلم فى مدرسة جنديسابور. وكذلك ابنته النضر بن الحارث. وكان طبيعيا فى المدارس والأديرة الموجودة فى الشام والعراق التى كانت تشتغل بالمسائل الدينية والعلمية على آثار اليونان والرومان أن تجذب بعض العرب إليها وأن يكون اهتمامهم بها أشد وأعظم بعد أن صاروا دولة متحضرة تتخذ حاضرتها فى دمشق الشام تلك المدارس.

...

أما الناحية التى يكتفى المؤرخون بالإشارة إليها فى خالد، فهى الناحية الأدبية، وليكنهم محعون على أنه كان فصيحاً شاعراً خطيباً حازماً جيد الرأى. وليس شئ من ذلك غريبا على حفيد معاوية. غير أن ما بقى من أخباره وأدبه قليل ومشتور فى كتب متفرقة يشهد له بالتقدم فى كل ما سبق. أوشك أن يكون خليفة بعد موت أخيه معاوية الثانى لكن وجود

ابن الزبير في الحجاز جعل الناس يعدلون عنه لصغر سنه ، وأبوا أن ينافسوا به وهو شاب ، الخليفة الشيخ عبد الله بن الزبير في الحجاز ، فتخطوه الى مروان بن الحكم وإن لم ينسوه في ولاية العهد أول الأمر . ثم حرماها وانتقلت إلى عبد الملك بن مروان . وكان خالد يشغل مروان بن الحكم فأراد أن يذله كي لا يثور عليه ، واستشار أصحابه فيما يفعل فأشاروا عليه أن يتزوج أمه ليزله ويخضعه ففعل . وكان مروان سريع العيب بذي اللسان . وجادله خالد يوما فسب أمه فغضب وتغيظ ، وذهب إلى أمه حزينا مهتما وأخبرها الخبر ، فطبت خاطره ، وأخبرته أنه لن يعود لمثلها أبدا ، وعزمت على الانتقام . فلما جاءها مروان أوعزت إلى الجوارى أن يكتمن أنفاسه بالوسائد إذا نام فعقلن فوجد ميتا في فراشه . وعرف عبد الملك بذلك ، فهم بقتلها ولم يمنعه إلا الحياء أن يشيع أنه قتل امرأة بأمر المؤمنين .

ولخالد مع عبد الملك مناظرات تدل على فصاحته وحضور بديهته : قالوا إن عبد الملك هدده مرة بالسطوة والحرمان ، فقال له خالد : أتهددني ويد الله فوقك مانعة ، وعطاؤه دونك مبذول !

أما أطول المناظرات المروية بينه وبين عبد الملك فهي التي كانت بشأن سباق بين عبد الله بن يزيد أخى خالد وبين الوليد بن عبد الملك ، روى أن أخاه عبد الله بن يزيد أجرى الخيل مع الوليد بن عبد الملك فسبقه .

فدخل الوليد على خيل عبد الله فنفرها ولعب بها فجاء عبد الله إلى أخيه خالد فقال له : لقد هممت اليوم بقتل الوليد بن عبد الملك . فقال له خالد مستكبرا : بئس ما هممت به في ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ! فقال عبد الله : إنه لقي خيلي فنفرها وتلاعب بها ! فقال له خالد أنا أكفيك . ثم دخل على عبد الملك وعنده الوليد فقال له : يا أمير المؤمنين إن الوليد ابن أمير المؤمنين لقي خيل ابن عمه عبد الله فنفرها وتلاعب بها فشق ذلك على عبد الله .

فرد عبد الملك عليه ردا فيه عز السلطان وسطوة الملك إذ تمثل بقول  
ملكه سبأ كما يحكيه القرآن الكريم : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها  
وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » . فغاض الرد خالداً وأثاره ،  
فأجابه جواباً أقسى وأشد ، وعمد إلى المعين الذي أخذ منه عبد الملك وهو  
القرآن الكريم ، فكان في حضور بديته قوى الجواب قاسى الرد ، قال  
مقتبساً : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفياً ، ففسقوا فيها فحق عليها  
القول فدمرناها تدميراً » .

لم يقنع عبد الملك بما سمع ولا كتبه تراجع وكان لبقاً في تراجعه فقال :  
« أما والله نمر المرء عبد الله ، على لحن فيه » ! فقال له خالد : « أفعلى الوليد  
تعول مع اللحن ؟ » فقال عبد الملك : « إن يكن الوليد لحانا فأخوه  
سليمان » . قال خالد : « وإن يكن عبد الله لحانا فأخوه خالد » . فكان  
تبعه لطريقة عبد الملك دليلاً على منطقته المفعم لحصمه ، لأنه من جنس  
حجته . ثم قال له عبد الملك : « مدحت والله نفسك يا خالد » ، قال : « وقبل  
والله مدحت نفسك يا أمير المؤمنين » . قال : « ومتى ؟ قال : « حين قات :  
أنا والله قاتل عمرو بن سعيد ، حق والله لمن قتل عمرو أن يفخر بقتله » !  
قال عبد الملك : « أما والله لعمر و كان أطولنا باعاً ! » . قال خالد : « أما  
والله إنى أرى ثأرى فى مروان صباح مساء ، ولو أشاء أن أدليه لأدلته -  
يريد أخذه للخلافة منهم - قال عبد الملك يفض النزاع بعد أن أخذه البيان  
والبدنية الحاضرة : « ما أجراك على يا خالد ! خلنى عنك . قال : لا والله .  
قال الشاعر :

ويجر اللسان من أسلات الحر      ب ما لا يجر منها البنان

فأحس عبد الملك أن الرفق أولى ، والتودد أملك للقلب ، فقال لابنه  
الوليد : يا وليد : أكرم ابن عمك ، ففقد رأيت أباه يكرم أباك ، وجده  
يكرم جدك .

ولو نقل البناء التاريخ كل ما كان له من أدب لرأينا مثلاً من

أمثلة الفصاحة العربية في حضور بديتها ، وسداد جوابها ، ولمله اكتفى بشاهد من فصاحته ليسكون دليلا على ما بعده .

\*\*\*

وإذا نظرنا إليه نظرة أخرى بعيدة عن العلم والسياسة رأينا رواة أخباره ينقلون عنه ما يدل على أنه كان يحسن الموعدة والتذكير كما يفعل الصالحون ، فقد سئل : ما أقرب شيء ؟ قال الاجل . قيل له : فما أرجى شيء ؟ قال : العمل . قيل فما أوحش شيء ؟ قال : الميت . قيل : فما آنس شيء : قال : الصاحب المؤاتي ذو المساعد ،

وقيل له : ما الدنيا ؟ قال : ميراث . قيل : فلأيام ؟ قال : دول . قيل : فالدهر ؟ قال : أطباق — أحوال — والموت يكمل سبيله ، فليحذر العزيز النذل ، والغنى الفقر ، فكم عزيز قد ذل ؛ وكم من غنى قد افتقر .

ولعل هذا القول الشبيه بأقوال الحكماء يدلنا على جانب آخر من صفاته وأخلاقه يشير إليه ياقوت الحموي في معجم الادباء رواية عن ابن حاتم إذ يقول : « كان خالد من الطبقة الثانية من تابعي أهل الشام ، وقيل أنه روى الحديث عن أبيه وعن دحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه ، وروى عنه الزهري وغيره ، وأخرج البيهقي ، والخطيب ، البعدادي ، والعسكري ، والحافظ بن عساكر عنه عدة أحاديث .

ولا أدري كيف نوفق بين هذا القول الذي يجعل يزيد بن معاوية راويا من رواة الاحاديث وبين ما عرف عنه من لهو وشراب . ويعتمد روايته أولئك المحدثون والمؤرخون ! إنها مسألة تدعو إلى التساؤل والتحقيق . ولو اقتصر نقلهم عن خالد لكان أهون .

\*\*\*

قيل عن خالد إنه كان من صالحى القوم ، وكان يصوم الجمعة والسبت والاحد ، وكان جودا ممدحا ، يقدر الادب ويثيب عليه ، جاءه رجل فقال له : إنى قد قلت فيك بيتين ولست أنشدهما إلا بحكمي : فقال له قل فقال :

سألت الندى والجود : حران أتما فقالا : بلى ، عبدان بين عبيد  
فقلت : ومن مولا كما ؟ فطاوولا على ، وقالوا : خاله بن يزيد  
فقال له تحكم . فقال : مائة ألف درهم فأمر له بها .

ويروى له شعر في التذكير بالموت يقول فيه :

أتمجب أن كنت ذا نعمة وأنتك فيها شريف مهيب  
فكم ورد الموت من ناعم وحب الحياة إليه عجيب  
أجاب المثية لمادعت وكرها يجيب لها من يجيب  
سقتة ذنوبا من أنفاسها ويذخر للحى منها ذنوب

أما الابيات التي نسبتها إليه مشهورة ، في قوله في زوجته رملة بنت  
الزبير بن العوام :

أليس يزيد السير في كل ليلة وفي كل يوم من أحببتنا قربا ؟  
أحن إلى بنت الزبير وقد عدت بنا العيس خرقا من تهامة أو نقبا  
إذا نزلت أرضا تحبب أهلها إلينا ، وإن كانت منازلهم حربا  
وإن نزلت ماء - وإن كان قبلها مليحا - وجدناه ماء باردا عذبا  
تجول خلا خيل النساء ولا أرى لرملة خلا خلا يجول ولا قلبا  
أقلوا على اللوم فيها فاني تخيرتها منهم زيرية قلبا  
أحب بنى العوام طرا لحبها ومن حبها أحببت أخوالها كلبا

ومات في خلافة الوليد بن عبد الملك بعد أن ترك له ذكرا خالدا كاسمه  
في تاريخ العلوم العربية ونشأتها . كما ترك للادب ومؤرخيه فرصة للحديث  
عن بيانه وفصاحته .

عبد الرزاق صهيبة

الاستاذ بكلية دار العلوم